# (2) الأهداف والوسائل

يعد ديفيد هيوم فى تاريخ الفلسفة مكملاً للحركة التى بدأها جون لوك عام 1690 بنشر مؤلفه – مقالة فى الفهم الإنسانى Essay Concerning Human Understanding ثم جورج باركلى George Berkeley الذى نشر كتابه مبادئ المعرفة الإنسانية Principles of Human Knowledge عام 1710 ، أى قبل مولد هيوم بعام والفكرة الرئيسة التى تأسست عليها هذه الحركة هى أنه لا يمكن أن تتوفر لدى البشر معرفة عن العالم سوى ما يستنتجونه من الخبرة وان حدود تطويرها هى أن الخبرة ، كما قال لوك – تتكون من الحس Sensation والتفكير أو التأمل الذاتى Reflection ، والعمليات العقلية التى تشكل موضوعات التأمل الذاتى (الباطنى) تضبط وتوجه فقط بناء على ما هو مادى أو تحويلها إلى ما هو مادى بتزويدها بالحواس ، وما هو مادى مزود بالحواس يتكون من عناصر ذرية Atomic كالألوان والمشاعر الملموسة والأحاسيس الجسدية والأصوات والروائح والطعوم ، لقد قام لوك طبقاً لهذا الوصف بعمل محاولة جريئة ليجمع على هذه القاعدة صورة للعالم الفيزيائى تتفق مع النظريات العلمية لبويل ونيوتن ، واستندت هذه الصورة إلى حد بعيد على تبنيه لنظرية الإدراك الحسى Perception التى قسمت المعطيات ، أو كما أطلق عليها لوك (الأفكار البسيطة) التى تنبنى على الإحساس إلى مقولتين Categories أفكار عن الصلابة والشكل والامتداد والتى

ليست فقط أثاراً لأفعال الموضوعات الفيزيائية على عقولنا لكن أيضاً تشابه تلك الموضوعات على نحو مناسب ، والأفكار التى تكونت عن اللون أو الطعم ، فتلك الأفكار ليست سوى أثار ، هذه الأفكار على التوالى، أفكار عن الصفات أو الكيفيات الأولية Primary، وأفكار عن الصفات أو الكيفيات الثانوية Secondary ، وكلتاهما ناتج عن الأشياء الموجودة فى الطبيعة ونشاط أجزائها الدقيقة ، إلا أن الصفات (الكيفيات) الأولية تتميز بأنها الصفات الثابتة فى الشئ الملازمة له ، بحيث لا يمكن أن يكون له وجود بدونها والتى تفرقه عن أى شئ آخر، أما الصفات (الكيفيات) الثانوية فهى غير ملازمة للشئ أو ليست أساسية فيه ، إنها مجرد قوى تُمكن الأشياء تحت ظروف مناسبة لإنتاج أفكار فى عقولنا ، فند باركلى – وفقاً لرأيه الذى نضعه فى الاعتبار – نظرية لوك فى الإدراك الحسى ، فلقد رأى أن لوك لم يقدم برهاناً لقبول تمييزه القاطع بين الأفكار التى تنتج عن الصفات الأولية وبين الأفكار التى تنتج عن الصفات الثانوية ، ولم يقدم تبريراً يثبت صدق مقدماته من أجل الاعتقاد فى وجود الأشياء أو الموضوعات الفيزيائية مطلقاً ، حيث إنه طالما أن الموضوعات الفيزيائية تكون مدركة وفقاً لطريقة نيوتن ولوك ، فإن وجودها يكون مستقلاً عن إدراكنا لها ، فهى لا تتكون ببساطة من أفكار أو كيفيات محسوسة ، فهذه وجهة نظر ارتآها باركلى لتكون على أية حال متوافقة مع الإدراك العام إلى حد بعيد ، فلابد من وجود عقول لكى تدرك هذه الأفكار ، وهناك

عدد قليل – فقط – من أفكارنا تعد نتاج خيالنا Fancy التى تتحقق وتتوفر لها – على وجه الإجمال ، بعض الأسباب الخارجية لتشكيلها ، ولكن من أجل ذلك فكان لا يوجد هناك حاجة أو مبرر ، ولا حتى لأى إمكانية متماسكة للجوء إلى المادة – كما استنتج باركلى – فالله ليس فقط علة أفكارنا ، ولكن أيضاً – يحافظ على الأشياء عندما تحدث وعدم دخولها فى مجال إدراك الإنسان ، وكان يمكن لباركلى أن يضع عبئاً أقل على الأله فيما لو تبنى طريقة جون ستيورات مل فى رد إدراك الموضوعات الفيزيائية إلى إمكانيات دائمة فى الإحساس .

يوجد نصوص التى يبدو فيها أنه تبنى هذا الرأى ، لكن باركلى كان أسقفاً إنجليكياً ، لقد مثلت اهتماماته الدينية دوراً كبيراً فى تضخيم الدور الذى يقوم به الإله ، ففى الفيزياء النيوتونية اتخذت ترتيبات بأن الخالق قد وضع قوانيناً ذات خواص آلية لتسيير العالم ، وبمجرد بدء هذه القوانين الآلية فى تسيير العالم ، أعرض عنها لأنها تعمل بنفسها على نحو محكم .

إن تقييم باركلى لهذا الرأى أنه يشجع على الاعتقاد فى مذهب التأليه الطبيعى أو ما هو أسوا منه ، لهذا أكد باركلى أن الله يتابع ويراقب بشكل دائم .

فى الجزء الذى تحدث عنه هيوم قلل – إلى حد بعيد – من قيمة وأهمية أراء باركلى – وهى تماثل طريقة باركلى فى تقليله لقيمة أراء

لوك – لقد حذف باركلى المادة على الأقل ، كما تصورها الفيزيائيون ولكنه ترك العقول على حالها .

وقد أوضح هيوم الذى جاهر بنزعته الشكية ، أن هذا التفضيل كان غير مبرر إذ يوجد لدينا فقط دليل غير مؤكد للاعتقاد فى وجود العقول بوصفها كيانات تحافظ على هويتها عبر الزمن ؛ بالمثل ليس لدينا دليل مؤكد يبرر الاعتقاد فى وجود الجواهر المادية .

كانت هناك رغبة مساوية للوصول لأى تبرير عقلى للاعتقاد فى وجود إله باركلى ، ولكن هيوم قام بتنفيذ نزعته الشكية بطريقة أبعد ، لقد اعتقد لوك وباركلى فى صحة مفهوم السببية بدون تحقق أو برهان On Trust إلا أن موضع الاختلاف بينهما يبدو فى أن لوك أقر بأن علاقات القوة تربط بين الجسيمات Particles الفيزيائية فى حين جعل باركلى العقول تحتكر النشاط السببى .

لقد كرس هيوم نفسه لتحليل العلاقة التى تربط السبب بالنتيجة ، وما نشأ من تحليله أن فكرة القوة أو فكرة النشاط السببى فى تفسيره الشائع كانت خرافة ، فمن الممكن ألا يكون هناك ارتباط ضرورى بين الأحداث الواضحة المعالم – كل ما يبقى – إذن – هو سلسلة من الإدراكات الزائلة بدون موضوع خارجى ، ليس هناك جوهر تنسب إليه ولا حتى ترتبط ببعضها البعض بذاتها ، كانت هذه هى النتيجة التى عزوها نقاده المتميزون المعاصرون لهيوم مثل توماس ريد Thomas Reid المبجل الذى أعقب أدم سميث كأستاذ للفلسفة

الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، توماس ريد هو مؤسس المدرسة الإسكتلندية لفلاسفة الإدراك العام (الذين قاموا بتنفيذ العرف فى القرن التاسع عشر) ، نشر توماس ريد كتابه (بحث فى الفكر الإنسانى على مبادئ الإدراك العام) Iniquity into the human mind on the principles of common sense عام 1764 ، الذى وضع طريقة لفحص كتاب هيوم الأول (رسالة) ، فى حين نوه هيوم نفسه إلى أن مؤلفه الثانى (بحث) قد حل محله وأنه المصدر الرئيس لآرائه الفلسفية .

لقد أعطى ريد الثقة لهيوم لأخذ فروض لوك ، للتوصل إلى نتيجتها المنطقية ، وبما أن النتيجة كانت متناقضة مع الفروض بشكل واضح فيلزم عنها أن فروضه بدأت بخطأ ، وقد كان الخطأ الرئيس كما رآه ريد ناتجاً عن تبنى لوك وأتباعه لنظرية الأفكار : هذا الافتراض الذى تم إدراكه وفهمه بشكل مباشر سواء تم تسميته (فكرة) أو كيفية مدركة عند لوك أو كما فضل هيوم تسميته ، بانطباع يعبر عن شئ لا يحتوى على وجود بعيداً عن الموقف المدرك الذى يشكله، وإذا رفضنا هذا الافتراض كما يفعل كثير من الفلاسفة ، وأتبعنا الإدراك العام فى الاعتقاد بوجود البشر الذين تنتمى إليهم الأفعال الإدراكية وأنهم يكتسبون المعرفة على نحو مباشر بواسطة حواسهم أو بإحداها من الأشياء الفيزيائية التى توجد مستقلة عن إدراكهم لها ، ثم بعد ذلك فمن الممكن ألا تتم مواجهة شكية هيوم فى كل تفاصيلها ،

إلا أنه – على الأقل – يمكن محو الملامح الأكثر تطرفاً ، التصور نفسه تجاه هيوم بوصفه (شاك) أسهم فى تدمير تجريبية لوك وباركلى ظهر مرة أخرى بعد مرور أكثر من قرن فى عمل فيلسوف أكسفورد – توماس هل جرين – الذى قام بنشر نسخة من مؤلف هيوم (رسالة) مصحوبة بمقدمة طويلة وكان الهدف الرئيس لهذه المقدمة التى وضعها هو دحض المضامين الذى احتواه كتاب هيوم (رسالة) ، إلا أن خط هجومه لم يكن مطابقاً للنهج الذى سار عليه توماس ريد ، ومنذ ذلك الوقت وبالرغم من الفعل المتأخر الذى قام به جون ستيوارت مل ، فقد كان نفوذ كانط وهيجل وتأثيرهما على الفلسفة الإنجليزية متأخراً .

ازداد تأثيرهما بسبب أضرار الإدراك العام ، كان جرين واحداً من قادة هذه الحركة الذين ساعدوا على نشر فكر كانط وهيجل ، وقد كان اعتراض جرين الرئيس على هيوم هو أنه لم يسلم بوجود نسق أعظم داخل العالم يتجاوز ما تمد به تداعى الأفكار ، ومرة أخرى ، فقد تم الإبقاء على أفكار هيوم على أساس مبررات المبادئ التى ورثها عن لوك وباركلى .

وكانت مصفوفته الأخلاقية المشتقة تعبر عن طريقة جديدة مطلوبة ، هذه الأفكار كلها كانت موضع تقدير كانط الذى عبر عنه فى مقدمته بأنها أيقظته من ثباته الدوجماطيقى Dogmatic Slumber ، أنتجت فحوص كانط اتجاهاً جديداً تماماً فى مجال الفلسفة النظرية ، وفى أكسفورد عام 1930 وربما حتى الآن فى بعض

الأماكن تم تقديم آراء هيوم المقبولة - على سبيل المثال – بواسطة مستر أوف باليول Master of Balliol السابق على أ د ليندساى A. D. Lindsay الذى أصدر مقدمات لطبعات هاندى إيفرى مان Handy Everyman التى تطلبتها النصوص الفلسفية ، كما تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من كل أخطاء هيوم وأفكاره المتناقضة التى لفت جرين الانتباه إليها فى نقده الحاد ، فمازال هيوم يؤدى خدمة جديرة بالاعتبار للفلسفة عن طريق إظهاره أن الثقة الأكيدة فى العقل التى افتقرت إلى الفحص والتمحيص أغرقته فى الدوجماطيقية ، هذا من ناحية ، وبرد التجريبية البحتة إلى ما هو مناف للعقل يكون قد مهد الطريق لفحوص كانط، من ناحية أخرى .

بقدر ما أعرف فالمعلق الأول الذى تعامل مع كتابات هيوم دون أن يكون تابعاً للوك وباركلى لا بوصفه داعماً لكانط ولكن بوصفه فيلسوفاً ذا آراء أصيلة تستحق ، على الأقل ، انتباه جاد لها ، وهو البروفيسر نورمان كيمب سميث Norman Kemp Smith الذى تم نشر كتابه (فلسفة ديفيد هيوم : دراسة نقدية لأصولها ومبادئها الأساسية) فى عام 1941 – يعد كتاب كيمب سميث كبيراً – للغاية – وليس واضحاً بدرجة كافية ، ولكن يتم مساندته عن طريق ما أظهره هذا الكتاب بأن لدى نورمان كيمب سميث معرفة عميقة واسعة بالفلسفة المدرسية Scholarship – ويتصف بميزة توجيه انتباه تام لما قاله هيوم بالفعل ، على سبيل المثال ، فقد لفت الأنظار إلى أنه : إذا

كان قصد هيوم الرئيس إنهاء تأثير أفكار لوك وباركلى ، فقد كان من المحتمل ، ألا يقوم بالإدعاء فى مقدمة كتابه (رسالة) بأنه لشرح مبادئ الطبيعة البشرية ، فنحن بالفعل نفترض منظومة كاملة للعلوم تبنى على قاعدة جديدة تماماً ، وهى المنظومة الوحيدة التى نستطيع الوثوق فيها ، بطمأنينة كاملة (TXVI) – وقد أشار أيضاً إلى لوك عندما قام بتحديد الوصف فى هذه المقدمة فى قائمة (بعض الفلاسفة المحدثين فى انجلترا الذين بدأوا فى تشييد علم الإنسان على أساس جديد ، أما الآخرون الذين أشار إليهم فهم (اللورد شافتسبرى والدكتور ماندفيل والسيد هاتشنستون والدكتور بتلر "TXV11") فهؤلاء جميعاً فلاسفة أخلاق ، وهذا يتفق مع رأى كيمب سميث بأن اهتمام هيوم الأساسى هو إقران الفلسفة الأخلاقية بالفلسفة الطبيعية.

فى الفلسفة الأخلاقية اتبع هيوم خطوات فرنسيس هاتشنستون فى تفسير أحكامنا الأخلاقية بوصفها تأسست على عمليات الحس الأخلاقى Moral Sense السامية ، أما الفلسفة الطبيعية فتعنى بدراسة العالم الفيزيائى، لقد انتقلت السيادة كما صرح كيمب سميث إلى اعتقاداتنا الطبيعية التى تعد تعبيرات تصف (العاطفة) ذاتها التى هيمن عليها الأُلف أو العادة – إلى حد بعيد للغاية دون أن تخضع للعقل بالمعنى الصارم لهذا المصطلح إلا فى مجال محدود نطلق عليه مجال الأسئلة الصورية الذى يهيمن عليه العقل، إن نص عبارة هيوم الشهيرة (أن

العقل عبد للعواطف ، وليس فى استطاعته أن يقوم بأى عمل آخر يتجاوز خدمة وطاعة العواطف) (T415).

كان مقصوده على أساس وجهة النظر هذه تطبيق ليس فقط – ما تم ادعاؤه عموماً لأحكام الفضيلة Judements of Value ، ولكن جميع الممارسات الصورية البحتة لأخذ وجهة النظر الكاملة (للفهم) ، ويجب أن نضع فى اعتبارنا فيما بعد كيفية تبرير كيمب سميث لأخذ وجهة النظر الكاملة لفلسفة هيوم ، هناك نقطة بالغة الأهمية نتجت عن الفحص الدقيق لنصوص هيوم الفلسفية وهى الفجوة بين هيوم وبركلى بإقرار تام تحدث هيوم عن باركلى فى كتابة (رسالة) بوصفه فيلسوف عظيم (T17) .

إلا أن هذا الوصف كان يرتكز فى المقام الأول على نظرية باركلى فى الأفكار المجردة ، فطبقاً لهذه النظرية تكون (جميع الأفكار العامة ليست إلا أفكاراً جزئية ملحقة بلفظ معين يعطيها دلالة أكثر اتساعاً ويجعلها تستدعى عند الاقتضاء أفكاراً أخرى تشبهها . (T17)

لكن إلى أى مدى تستحق هذه النظرية وصف هيوم لها بأنها (واحدة من أكثر الاكتشافات قيمة التى تم التوصل إليها فى السنوات الأخيرة فى جمهرة الفلاسفة) ، هذا سؤال آخر يجب علينا الانتباه إليه – يعد هيوم على جانب واحد مع باركلى فى الاعتراض على تمييز لوك بين الأفكار التى تنتج عن الكيفيات الأولية وبين الأفكار التى تنتج عن

الكيفيات الثانوية – وفى مؤلفه (بحث) رفض الرأى بأن الأفكار التى تنتج عن الكيفيات الأولية يتم الوصول إليها بواسطة التجريد ، لأننا إذا فحصناه بدقة سوف نجده غير قابل للفهم ولا معنى له (E154) ، إنه يُرجع الفضل إلى باركلى فى هذه الحجة الشكية ، ثم أضاف بأن معظم كتابات هذا المؤلف البارع (باركلى) تشكل أفضل الدروس فى النزعية الشكية التى توجد سواء بين الفلاسفة القدامى أو المحدثين بما فيهم بايل Bayle (E155) ، يعد هذا الرأى تقييماً جديراً بالاعتبار لباركلى وقام بإضافة عديد من الحجج التى دعمت بالوثائق بواسطة كيمب سميث بأن قاموس بيربايل فى التاريخ والنقد الذى نشره فى عام 1697 يعتبر مصدراً رئيساً لنزعة هيوم الشكية – فقد انتبه هيوم إلى حد بعيد إلى ما لم ينتبه إليه باركلى لكى يكون شاكياً ، وعلى النقيض من ذلك فقد وضع المتشككون مع الملحدين والمفكرين الأحرار فى فئة واحدة بوصفهم خصوماً يسعى نسقه إلى دحض آرائهم ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد أبقى هيوم على فرضيته (أن جميع حجج باركلى تعد شكية فحسب) وفكره يعبر عن إنها لم تعترف بأى إجابة ولم تنتج أى إقناع – فكان تأثيرها الوحيد إنتاج هذه الدهشة الوقتية والتذبذب الذى نتج عن النزعة الشكية (E155) – يبرز سؤال على جانب كبير من الأهمية ، هل أتبع هيوم وجهة النظر نفسها ، فى تقديم حججه ؟ الدليل كما سنرى يتضارب حتى فى أخر وأشهر فصل فى كتابه الأول (رسالة) حيث زعم أنه قد أوضح (أن العقل عندما يتصرف

بمفرده وطبقاً لأهم مبادئه العامة ، فإنه يدمر ذاته تماماً ، ولا يترك الحد الأدنى من البينة فى أى قضية سواء فى الفلسفة أو الحياة العامة (T267-8)، يمكننى أن أجادل هنا ، بأن هيوم يبالغ كثيراً فى الأهمية الشكية لاستدلاله – ولكن ما أريد جذب الانتباه له الآن أن هيوم تراجع عن الخاتمة التى تضمنت قوله : لا يمكن قبول استدلال غير دقيق أو غير محكم (T268) وقد أبان بالفعل أن الطبيعة نفسها تكفى لعلاجه من (كآبته الفلسفية) ، وأنه يجد – نفسه يعيش ويتكلم ويتصرف مثل الأشخاص الآخرين فى شئون الحياة العامة بطريقة أكيدة وضرورية تماماً (T269) ، ومع ذلك فهذا لا يقتضى رفض الفلسفة ، وإلى نهاية الفصل فما زال هيوم يطالعه الأمل فى تأسيس نسق أو مجموعة آراء حتى إن كانت غير صحيحة (لهذا ربما يكون من المبالغ فيه الرغبة فى ذلك) – من الممكن أن يكون على الأقل مشبعاً لعقل الإنسان ، ومن الممكن أن يختبر الفحص الأكثر نقداً (T272) ، وفى مؤلفه (البحث) لا ينبغى أن ننسى دلالة ما كان يعنى إبطال (الرسالة) ، حيث كانت الملحوظة الشكية ذات أهمية ضئيلة – بالإضافة إلى ذلك – فعندما تظهر (الملاحظة الشكية) بالفعل ، فإن استخدامها يعد إيجابياً لكونها تعمل كسلاح ضد الخرافة Superstition .

لم يكن صحيحاً أن هيوم نظر إلى كل حجج باركلى على أنها لا تسمح بوجود إجابة أورد فمن الممكن أنه اعتقد بأنه لا يوجد خلل يمكن الكشف عنه لدحض برهان باركلى على وجود المادة ، على

الرغم من أن ذلك مشكوك فيه ، إلا أنه أعتقد بالتأكيد أن لديه إجابة تفند البرهان الذى حاول باركلى تشييده بغرض إثبات وجود إله ، تظهر الإجابة فى مؤلفه (بحث) من رد هيوم على مالبرانش Malebranche الذى استجاب لديكارت وذلك عندما أصبح واحداً من هؤلاء الذين زعموا بأن هذه الأشياء التى تم تسميتها (بالأسباب) لا تعبر فى الحقيقة إلا عن (مناسبات) Occasions ، وأن المبدأ الحقيقى والمباشر لكل أثر لا يعبر عن أى قوة أو إجبار فى الطبيعة ، ولكن يعبر عن مشيئة الكائن الأسمى الذى يرغب فى اقتران الأشياء الجزئية بعضها بعض إلى الأبد (E70) ، يعلق هيوم على هذا الانحراف Excursion فى صيغة واضحة والذى ينطبق بصورة متساوية على آراء باركلى – ينبه هيوم فى تعليقه (إذا كنا لا نستطيع اختراق أسرار القوى الفيزيائية – فإننا نجهل بطريقة متساوية حينئذ الأسلوب أو القوة التى يستطيع العقل من خلالها ، حتى العقل الأسمى بالتفعيل على نفسه أو على الجسم (E72) ، فإذا لم يكن لدينا وعى ، بهذه القوة فى أنفسنا ، فنحن لا نفسر شيئاً بإلحاقها بالكائن الأسمى الذى لا يوجد لدينا فكرة عنه ، ولكن ما نتعلمه يكون من التأثير على ملكتنا العقلية (E72) – أزعج هيوم باركلى أيضاً بإشارته إلى أن باركلى يجادل بصورة أكيدة على قوة الإله لتوكيل درجة معينة من القوة للمخلوقات لإنتاج كل شئ بمشيئته الفورية المباشرة (E71) – تصل موهبة هيوم فى السخرية والتهكم إلى مؤرخه التابع له – إدوارد جيبون – ومثل – جيبون – يكون مستعداً

تماماً لعرضها عندما يكتب فى الدين – هكذا – فى مقالته فى (خلود النفس) التى لاحظنا بأنه امتنع عن نشرها أثناء حياته ، فقد أشار إلى أنه (لا يوجد هناك من يستطيع توضيح الإلزام Obligation اللامتناهى لكى يجعل الجنس البشرى يلتزم بتقديس وحى السماء ، ولذلك وجدنا أنه لا يوجد وسيط آخر استطاع تأكيد هذه الحقيقة المهمة والعظيمة (G406) ، وأكثر من ذلك ، فقد أختتم هذا الفصل فى مؤلفه (بحث) بقوله : لا يوجد أى تبرير للاعتقاد فى وقوع معجزات بتأكيده (بأن الدين المسيحى لم يكن منذ البدء مصحوباً بالمعجزات ، لكن ، إلى هذا اليوم لا يمكن تصديقه من قِبّل أى شخص عاقل ، فالعقل يعد غير كاف لإقناعنا بمصداقيته : وأى شخص يتحرك بواسطة الإيمان لقبوله يعد واعياً بالمعجزة المستمرة فى شخصه التى تدمر جميع مبادئ فهمه وتعطيه تصميماً للتصديق والاعتقاد على ما يخالف العادة والخبرة (E131) .

اتخذ هيوم موقفاً عدائياً للغاية من المسيحية على كلا الجانبين – العقلى والأخلاقى - ، وهكذا ، ففى مقالته (التاريخ الطبيعى للدين) الذى سلم فيها (بأن الرومان الكاثوليك طائفة متعلمة بشكل واضح) ، فإنه يشير إلى موافقته على حكم الفيلسوف العربى الشهير ابن رشد Averross بأن (من جميع الأديان فيعتبر الدين الأكثر بطلاناً ولا معنى له هو الدين الذى تأكل فيه نذوره بعد أن يتم خلقها إلهياً (G343) ثم يضيف إلى هذا الرأى – رأيه الخاص به (بأنه لا يوجد أى

فكر فى عبادة الأوثان ، فهى تعطى مجالاً واسعاً للتصورات المتوهمة كتلك المتعلقة بالوجود ، لذلك فهى باطلة تماماً لدرجة أنها تبتعد عن قوة جميع المجادلات) (G343) – وليست حالة الكالفنيين أفضل – فقد تبنى هيوم وجهة نظر صديقه الشيفالير رامسى بأن (إلاههم اليهودى قاس إلى حد بعيداً جداً ، ظالم ، وهمى) (G355) – فقد تم فحص برهان هذه القضية بغرض توضيح حالة تابعيهم بأنهم تفوقوا على الوثنيين فى الكفر Blasphemy ، فالوثنيون يسعدون أنفسهم بتقديس الشهوة Lust وغشيان المحارم والزنا ، لكن اللاهوتيين المؤمنين بالقضاء والقدر يقدسون القسوة والعنف والعقاب الإلهى ، والانتقام وجميع الشرور السوداء (G356) – يمكن النظر إلى هذه الآراء بوصفها انتقاداً فقط لرجال اللاهوت المؤمنين بالقضاء والقدر ، لكن هيوم جادل فى مؤلف (بحث) بأن الدعوى القائلة (بأن جميع أفعال البشر مقررة الحدوث حتمياً مثل أى أحداث فيزيائية ، لذلك إذا أرجعت إلى الإله ، فيجب أن يكون هذا الإله مؤلف الخطيئة والفساد الأخلاقى بجانب أى شئ أخر بينما تشير فكرة ليبنتر إلى أن هذا العالم الذى خلقه الإله ، يعد أفضل العوالم الممكنة ، لذلك فكل الشرور التى تفصح عنها تعد برهاناً بالفعل على خيرية الخالق – هذه الفكرة بدت منافية للعقل بالنسبة لهيوم وفولتير ، لكن هيوم افتقد الروح التى تؤهله لكتابة عمل بهذه السخرية المتوحشة المتمثل فى روايات فولتير (كانديد) Candide – وبوجه عام – فقد مال هيوم للحكم على

المعتقدين فى واحدية الإله سواء تبنوا الترجمة المسيحية أو أى نوع آخر من الترجمة فى التوحيد بأنهم قد وضعوا مقدمة عقلية على فكر المشركين الذين اعتنقوا عقائد ، تعبر عن التصورات البدائية، وعلى الجانب الآخر ، فقد أدى تعصب Intolerance أتباع أديان التوحيد إلى اضطهاد نشط لهؤلاء الذين خالفوا آرائهم الدينية مما جعلهم أكثر إضراراً بالمجتمع (G338) .

نسب هيوم أصل العقيدة الدينية إلى جهل البشر بالأسباب الطبيعية وإلى الآمال والمخاوف المستمرة التى تتحكم بعقل الإنسان (G315) ، ومن أجل إشباع هذه الآمال وتهدئة هذه المخاوف ، فهم ينظرون إلى موجودات مشابهة لذواتهم ، لكن لديها قوى أكثر فعالية وتأثيراً ، واختراعهم لهذه الموجودات تم تفسيره (بأنه اتجاه عام تضّمنه الجنس البشرى . لتخيل كل المخلوقات فى صورة مشابهة لذواتهم وفى الانتقال والتوجه نحو أى موضوع، وفى الكيفيات التى اكتسبوها بطريقة اعتيادية ويدركونها بطريقة مألوفة (G317) – ويصر هذا الاتجاه على اعتقاده سواء اتخذت الموجودات شكلاً مادياً أو لم تتخذ شكلاً مادياً مطلقاً ، ثم قلل هذا الاتجاه عدد الموجودات إلى موجود واحد ، لم يعلن هيوم بأنه ملحد أبداً .

وعلى النقيض من ذلك ، فقد أعلن فى كتابه (التاريخ الطبيعى للدين) وفى مواضع فى كتاباته الأخرى عن قبوله الحجة التى تشكلت على أساس التصميم ، فإطار الطبيعة وهيكلها – على وجه الإجمال –

يدل على مبدع عبقرى ولا يستطيع أى فاحص أو باحث يتسم بالعقلانية بعد تأمل جاد – تعليق أو تأجيل عقيدته لدقيقة واحدة بالنظر إلى المبادئ الرئيسة للدين والإلحاد الأصلى (G309) ، لا تعتبر هذه الملاحظة غير صادقة بشكل واضح وأعتقد أنه صرح بذلك لكى يعبر عن طريقة ساخرة ، ومن ناحية أخرى ، ففى مؤلفه الرائع – محاورات فى الدين الطبيعى الذى كتبه هيوم على فترات متقطعة أثناء الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة من حياته ، فإن الحجج القوية للغاية – كما سنرى – التى وضعت على لسان فيلون Philo الذى كانت مهمته التى اضطلع بها فى المحاورة هى تفنيد الحجة التى تكونت على أساس التصميم Design واتفق مع كيمب سميث الذى وضع بين أيدينا نسخة متميزة من هذه المحاورات بأن هيوم بدون أن يظهر رأيه بشكل مباشر قصد إلى أن يجعل القارئ الفطن يستنتج أنه تبنى موقف فيلون ، وفى رأيى فإن عدم التصديق ليس فقط لكثرة الأنواع الخرافية Superstitious للإلحاد ، ولكن لأى شكل من المعتقد الدينى الذى كان واحداً من الأهداف الرئيسة لفلسفة هيوم ، يجب أن نضع فى اعتبارنا عند فحص أى عمل من أعمال الفلاسفة المشهورين فى القرن السابع عشر أو بداية القرن الثامن عشر أنهم لم يميزوا بين ما تم الحديث عنه فى فترة تالية بين الفلسفة وبين العلوم الطبيعية أو الاجتماعية .

هذا لا يعنى القول أنهم نظروا إلى الفلسفة ذاتها بوصفها علم خاص ، ولكنهم نظروا إلى كل شكل من أشكال الفحص العلمى

بوصفه فحص فلسفى، التقسيم الرئيس ، فى رأيهم كان بين الفلسفة الطبيعية التى انصب اهتمامهاً على العالم الفيزيائى وبين الفلسفة الأخلاقية التى سماها هيوم (بعلم طبيعة الإنسان) وينبغى أن نعترف بأن الفلسفة الطبيعية قد تقدمت كثيراً على الأخرى ، فلم يمتلك فلاسفة الأخلاق القدرة على إدراك أهمية المقارنة بوضعها فى مقابل التقدم فى فهمنا للعمليات المادية للطبيعة التى بدأت بعمل كوبرنيقوس ثم كبلر ثم جاليليو واستمرت مع أعمال بويل ونيوتن ، ومع ذلك فقد كان هناك اعتقاد بأن لوك وهيوم يعتقدان فى سيطرة وغلبة الفلسفة الأخلاقية استناداً إلى ما ذكره هيوم فى مقدمة مؤلفه (رسالة) ، بأن جميع العلوم ترتبط ببعضها بدرجة كبيرة أو صغيرة بطبيعة الإنسان ، ومع أن غالبية هذه العلوم قد تبدو أنها تتباعد عن بعضها ، فإن هذه العلوم مازالت ترجع بطريق أو آخر باتجاه طبيعة الإنسان (TXV) ، يوجد هناك علوم مثل المنطق ، الأخلاق ، النقد والسياسة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة الإنسان أكثر من العلوم الأخرى ، لكن حتى الرياضيات والعلوم الطبيعية تعتمد على قوى الإنسان المعرفية ، فقد رأى هيوم أنه من المستحيل ، أن نقول بأن التغييرات والتحسينات التى من الممكن أن نكون قد أحدثناها فى العلوم كانت مكتسبة لدينا بقوة واتساع الفهم البشرى ومن الممكن شرح طبيعة الأفكار التى نستخدمها والعمليات التى نقوم بها فى تعليلاتنا (TXV) ، كرس هيوم نفسه كما فعل لوك قبله لإشباع هذه الحاجات ، لقد كان لوك موضع تقدير هيوم الذى

اقترب منه بطريقة صحيحة ، وذلك لتوظيفه الواسع لمصطلح (فكرة) ، وكان يشعر بالضيق أيضاً لوقوع لوك فى شراك آراء المدرسين الذى اتضح فى إساءتهم التعامل مع السؤال عن الأفكار الفطرية والسماح بشئ يشبه الغموض وتعقيد الكلام وذلك للدوران حول (تعليله لـ ... كثير من الموضوعات الأخرى (E22) ، ولكنه شارك لوك فى معتقده الخاص بالمنهج التجريبى فى التعليل والاستدلال والذى يعزى إليه كل إنجازات نيوتن وخلفائه والتى يمكن تطبيقها على العلوم الأخلاقية – إلا أن لوك كان لديه فهماً أكثر عمقاً لنظرية نيوتن .

لقد وافق كل من لوك وهيوم على أن نظرية نيوتن تستند على الملاحظة والتجربة (TXVi) ، لكن لوك لاحظ ما لم يلاحظه هيوم بأنه فى حدود نظرية نيوتن كان الاستناد غير المباشر ، فقد فهم لوك أن نيوتن علل سلوك الأجسام عن طريق عمليات أجزائها الدقيقة التى تتصف بأنها غير قابلة للملاحظة ، وكانت محاولته لعمل اتفاق بين هذه الحقيقة وبين الحدود التى وضعها لنطاق أفكارنا وعلى قدرتنا فى تحصيل المعرفة قد أفضت إلى قدر كبير من الغموض والتعقيد ، وأقترب منه هيوم فى ذلك ، وعلى الجانب الآخر، صرح هيوم بأن نيوتن لم يقم بأكثر من ممارسة الاستقراء المباشر ، بما أن نيوتن أقر بأنه منكر للفروض فى بداية كتابه (المبادئ) فى عبارته الشهيرة (أنا لا أكون فروضاً) ، وكان مقصده أنه لن يقدم فروضاً تفتقر إلى بينة تجريبية – وما عبر عنه هيوم هو انه منع نفسه عن أى تعميم لا يتأسس

بشكل مباشر على الوقائع التى تم ملاحظتها ، وقد أثر هذا الخطأ التاريخى على معالجة هيوم للسببية ، والسببية مظهر من مظاهر نسقه، ألحق إليها أهمية كبيرة ، لكنى سوف أحاول إثبات عدم إضعافها لقوة جدله ، فإنها لا تتعلق بمحاولته لتطوير علم الذهن ، لأن كل ما يخص هذا الموضوع يعبر عن قدرته على إعطاء وصف دقيق للحالات المختلفة للوعى، والبقاء على أرضية من الملاحظة اليومية للوصول إلى التعميمات التى يمكن افتراض قيامها بالإشباع ، وعلى وجه واحد منها على الأقل، فقد كان – المنهج الذى اتبعه كلا من لوك وهيوم بسيطاً للغاية ، فقد قاما بطرح سؤالين . ما المواد التى تجهز الذهن وما الاستخدامات التى يمكنه القيام بها ؟ كانت إجابة هيوم عنى السؤال الأول ، بأن ما يوصف بأنه مادى هو ما يتوقف على إدراكات Perceptions التى قسمها إلى مقولتين الانطباعات Impressions والأفكار، وفى التجريد ، الذى نشر دون ذكر اسم كاتبه Anonymous حيث أفرط كاتبه (غير المعلوم) فى تعظيم فضائل الرسالة ثم قدم رأى مؤلف كتاب (رسالة) بأن الإدراك يمكنه أن يحضر أى شئ للذهن إذا قمنا باستخدام حواسنا أو تم قيادتنا عن طريق العاطفة أو بأعمال فكرنا وتأملنا الذاتى (T647) .

واستمر فى القول "أن الإدراك يمكن تسميته انطباعاً عندما نشعر بعاطفة أو بانفعال من أى نوع أو يكون لدينا صوراً عن موضوعات خارجية تم التوصل إليها بواسطة حواسنا (T647) ، ثم أضاف بأن

(الإنطباعات تعبر عن إدراكاتنا القوية الحية) ، وأنها تتضمن بأن الأفكار – المُقارنة – تعد واهنة أو ضعيفة للغاية حال تأملنا لعاطفة لا نشعر بها أو موضوع غير حاضر أمام إدراكنا (T647) ، فيما عدا الإشارة إلى الموضوعات الخارجية التى تُكون انطباعاتنا ، فإننا سوف نرى أن ثمة مشكلة خطيرة تتعلق بهيوم بسبب أن ما يعنيه بالانطباعات يعتبر مشابها بشكل واضح لما ذكره فى مؤلفه (رسالة) ، فقد قام بتعريفها فى (رسالته) بأنها إدراكات تنفذ إلى وعينا بكل قوة وحيوية ، وأضاف أنه يفهم تحت مسمى هذا الاسم كل إحساساتنا ، عواطفنا ، وانفعالاتنا ، حيث تقوم بوضع مظهرها الأول فى النفس (T1) وفى مؤلفه (بحث) أكد على ما يقصده (بالانطباع) بأنه كل إدراكاتنا المفعمة بالحيوية عندما نسمع أو نرى أو نشعر أو نحب أو نكره أو نرغب أو نريد (E18) ، لكن هذا التعريف غير واضح ، فالمظهر الواضح للانطباعات لا يعبر عن قوتها أو أنها حافلة بالحيوية لكن عن حدوثها الفورى ، الذى يمكن أن يجعلها بوجه عام أكثر حيوية من أفكار الذاكرة أو مخلوقات الخيال الذى وضعها هيوم فى المعسكر المعاكس الخاص بالأفكار ، لكن البرهان التجريبى لا يدعم افتراض وجود هذا الفارق بصفة دائمة ، وعلى النقيض من لوك ، فليس لدى هيوم اعتراض على القول بأن الانطباعات فطرية .

فقد أشار إلى أنه إذا كان يعنى بأنها فطرية هى أنها توجد وتحدث بميلادنا ، فإن النزاع ، بناء على ذلك ، يكون تافهاً ولا يستحق

إثارة السؤال عن بدء وقت التفكير (E22) وفى فقرة فى مؤلفه (بحث) يشير إلى (فطرى) بأنه الشئ الأصلى أو المطبوع من إدراك غير مسبوق ، وفى التجريد (هو ما ينتج فوراً من الطبيعة) ، وفى كلتا الحالتين ينتهى هيوم إلى أن كل الانطباعات تعتبر فطرية ، إلا أن هذا لا ينطبق فى الحقيقة على انطباعاتنا الحسية طبقاً للتعريف الأول ، إلا إذا تم تحديد معنى كلمة (مطبوعة) بشكل أكثر دقة . إذا طبقنا التعريف الثانى منهم فيبدو أننا نمتلك فقط طريقة مختلفة لجذب الانتباه على أنها تعبر عن محتويات الإدراك الحسى ، ومع ذلك ، فقد قامت أمثلة هيوم بتوضيحها والتى أظهرت أنه اهتم بشكل رئيس بالعواطف ، وقناعته بأن مثل هذه الأشياء ككحب الذات أو كالإحساس بالمهانة أو التعاطف بين أفراد الجنس البشرى (E22) تعد ملازمة Inherent للطبيعة البشرية ، هناك فقرات تظهر أن تمييز هيوم بين الانطباعات وبين الأفكار يمكن أن يتساوى مع التمييز بين الشعور والتفكير ، لا يعنى ذلك أنه كان يتوقع التمييز الذى وضعه كانط بين الحدوس وبين الإدراكات – الانطباعات عند هيوم – ليست فقط ، تدخل إلى الذهن تحت نطاق الإدراكات ، ولكن يتم ضمان هذه الإدراكات لتطبيقها ، وحجة هيوم تبنى على أساس (أن جميع أفعال واحساسات الذهن تكون معروفة بالنسبة لنا بواسطة الوعى – Consciousness لذا يجب أن تظهر بالضرورة فى كل شئ معين لما يعبروا عنه ويعبروا عما يظهر عليه، كل شئ يدخل الذهن هو فى الواقع إدراكاً ذلك لأنه من

المستحيل أن أى شئ ينتمى إلى الشعور يظهر بطريقة مختلفة . من الممكن افتراض ذلك – التى ندركها تتم بطريقة واعية – فمن الممكن أن نكون مخطئين (T190) ، فإنه من الصحيح ، أن تظهر هذه العبارة فى نص يبين فيه هيوم إنكاره لأى انطباع يمكن أن يكون مناقضاً لموضوع خارجى ، ولكنى أعتقد بأنه من الواضح بأن هيوم كان يقصد التأكيد على أن جميع الإحساسات يتم الشعور بها بواسطة الذهن كما هى بالفعل لتطبق على معرفتنا لكيفياتهم ، فإذا كان على صواب فى هذه النقطة ، فإن المشكلة لا تزال بلا حل ، فلا يوجد هناك شك فى عدم قدرتنا على وصف مشاعرنا والطريقة التى تبدو بها بالنسبة لنا ، ولكن من الممكن الجدال بأن أخطاءنا تعد لفظية خالصة ، وكما حددها برتراند رسل بأنها (ما أعتقد فى صحته – إلا أن ألفاظى تكون غير منتقاه) – تكمن الصعوبة فى وجود حالات لا يسهل فيها وضع خط يفصل بين الأخطاء الحقيقية وبين الأخطاء اللفظية ، لحسن الحظ ، فبقدر ما كان هيوم مهتماً بذلك ، فيمكن ترك السؤال مفتوح ، فإنه مقيد للقول بأن تقييمنا لكيفيات الانطباعات من الممكن أن تصل لمخاطرة الخطأ ، أنها غير منزهة عن الخطأ ، وفى الواقع عندما تأتى لتقييمنا للنسب المقارنة للانطباعات الممتدة مكانياً – فإنها تعتبر معقدة كما وصفها هيوم ، وأقر بإمكانية الشك والخطأ – فقراراتنا إما أن تكون ذات أهمية (كبيرة) أو (قليلة) أو (متعادلة) Equal أو أحياناً منزهه عن الخطأ) (T47) ، هناك عنصر على جانب كبير من الأهمية

فى حساب هيوم للانطباعات ، وهى (أنها وجودات داخلية وأنها تزول) (T194) ، والجدال الذى يدعم به وجهة النظر هذه كتلك الحالة المتكررة مع هيوم ، خلط بين جانب منطقى وبين جانب تجريبى ، التجارب التى يفترض بأنها (تقنعنا بان إدراكاتنا لا تمتلك أى وجود مستقل تعبر عن هذه التى يتم تشكيلها فى الأدب الفلسفى Philosophical Literature تحت الاختيار السئ الذى يقود (الجدل من الوهم Illusion) ، الرأى الذى يوجد له بينة حقيقية (بأن جميع إدراكاتنا تكون تابعة لأعضائنا واستعدادا أعصابنا وأرواحنا الحيوانية، وهى التى يتم تأكيدها عن طريق ما يظهر من زيادة ونقصان للأشياء طبقاً لمسافتهم ، وذلك بالتغييرات الواضحة فى أشكالها وألوانها والكيفيات الأخرى الناتجة عن مرضنا وسوء طباعنا ، وبواسطة أى عدد غير محدد من التجارب الأخرى من النوع نفسه (T211) – وبعيداً عن السؤال الخاص بإمكانية تفويض هيوم على أساس فروضه وذلك بغرض التركيز على هذه الطريقة ارتكازاً على الفيزياء والفسيولوجيا ، حيث لا تعتبر الحجة قاطعة ضد المعارضين مثل توماس ريد الذى تبنى وجهة نظر الإدراك العام فى الممارسة العادية للإدراك الحسى الذى تقوم بتقديمه وإبرازه بطريقة فورية وفقاً للموضوعات الفيزيائية ، لذا فلا تعتبر حجة يقينية ، وذلك لأن وضعها لا يؤدى إلى الالتزام بها ، إما بإنكار أن إدراكاتنا تعتمد على عدد من العوامل بجانب وجود الموضوع المدرك ، أو من أجل تأكيد الأشياء التى

ندركها ، كما فى الواقع ، أعتقد لذلك أن هيوم قد اعتمد على حجته المنطقية البحتة التى تناقض الافتراض بأن الكيان الذى تم تعريفه بوصفه محتوى لإدراك معين من الممكن أن يؤدى إلى وجود منفصل متعلق به ، باختصار ، فقد تم وضع الانطباعات على أنها (داخلية وزائلة) بواسطة حكم ، فى تحد للطريقة الحالية ، سوف أناقش فيما بعد على أى معدل تشئ مثلها تعد نهجاً معترفاً به ، بحيث يمكن اتخاذه أساس لنظرية حصينة للإدراك ، وللأسباب التى ستصبح واضحة ، فيما بعد كان اهتمام هيوم الأساسى هو الأفكار ، ولكن الحسابات التى وضعها لاستخدامه مصطلح (فكرة) تعد غير دقيقة .

فى (الرسالة) يقول (بأنه يقصد بالأفكار بأنها هى الصور الواهنة للانطباعات فى التفكير والاستدلال) (T1) ، وفى (التجريد) يقول عندما نتأمل العاطفة أو أى موضوع غير حاضر ، هذا الإدراك يعبر عن فكرة ، لذلك ، فإن الانطباعات تعتبر إدراكاتنا المفعمة بالحيوية والقوية ، بينما تكون الأفكار واهنة وضعيفة (T647) وقد أعطى المعنى نفسه فى مؤلفه (بحث) فيما عدا تنظيم التفسيرات التى تُراجع – فقد تم تقديم الموضوع عن طريق الإشارة إلى أنه يمكننا تقسيم جميع إدراكات الذهن إلى فئتين أو صنفين والتى يتم تمييزها بواسطة درجاتهم المختلفة من القوة والحيوية (E18) ، والسبب الذى يجعلنى أقول بأن هذه التفسيرات غير ملائمة ، لا يعبر فقط عن إمكانية حملهم للافتراض الخاطئ بأن عمل المفاهيم التى تقوم بها الأفكار بالنسبة لهيوم دائماً ما

يتم تنفيذها بواسطة الصور ، أكثر من ذلك ، فقد تم وضع التأكيد على العامل الخطأ ، دعنا نضع فى اعتبارنا من اجل هذه المناقشة ، الحالة التى يتخذ فيها الفكر بعض العاطفة أو الشعور شكل الصورة – والآن – فمن الممكن أن تكون أو لا تكون الحالة القائلة بأن الصورة التى تشكلت بطريقة فعلية تعد أقل حيوية عما كانت عليه العاطفة عندما حدثت ، والمحور الأساسى هو عدم وجود درجة فى حيويتها أو وهنها يمكن اتخاذها إشارة بجانبها ، ولكى تكون صورة لعاطفة ، فإنه يجب تفسيرها كرمز ، يجب أن تعطى الأهمية للمعتقد ليس فى وجوده ولكن فى وجود ما يمثله ، وبناء على ذلك يصبح السؤال عن امتدادهم المقارن غير ذى صلة .

ويمكن شرح هذه النقاط بطريقة واضحة وذلك بواسطة أمثلة الذاكرة – وكما تبين – فقد وجد القليل لدى هيوم فى حديثه عن الذاكرة ، فهو يتحدث عنها بوصفها ملكة Faculty تمكننا من استعادة انطباعاتنا ؛ إلا أن هذا يعد بلا ريب غير ممكن من وجهة نظره بأن كل انطباع يتم استعادته تماماً – بالمعنى الحرفى – ثم يقول – ما ينتج فى الذاكرة يعبر عن شئ يتصل بحيويته التى تعد وسطاً بين انطباع وفكرة (T8) ، وبوجه عام ، فإنه يظهر تسليمه بان الذاكرة يوثق فيها على الأقل عندما تكون متعلقة بالأحداث القريبة حيث قام بوضع معطيات الذاكرة إلى حد بعيد بمستوى المعطيات الفورية كمصادر للمعرفة التى تخدم – كأساس من اجل مزيد من الاستدلالات الجريئة ،

وسوف نرى أنه من الصواب أن نضع فى الاعتبار هذه الاستدلالات الجريئة التى اهتم بها هيوم اهتماماً مباشراً ، وما يهم فى السياق الحالى هى طريقة هيوم فى التمييز بين أفكار الذاكرة وبين أفكار الخيال ، فطبقاً لمبدأ هيوم الأساسى – الذى نفحصه الآن هو أنه يجب أن يستمدا من انطباعات سابقة ، لكن فى حين تقوم الذاكرة – ما دامت تعمل بطريقة سليمة (بحفظ الصورة الأصلية التى تم فيها تقديم الأشياء) مثل الترتيب الذى حدثت فيه فى الأصل ، فإن الخيال بقدر ما يبقى فى مملكة الانطباعات الماضية فإنه يكون حراً فى تنظيمها فى أى نظام وتجميعها وتركيبها بأى طريقة يريدها سواء حدثت هذه التجمعات بالفعل أو لم تحدث ، يوجد مع ذلك صعوبة تجاهلها هيوم ، فى أغلب الأحوال ، لكن تمت إشارته إليها بطريقة عابرة ، وهى إننا لا نستطيع الرجوع إلى انطباعاتنا الماضية لاكتشاف موضع حدوث هذا الاختلاف ، ونتيجة لذلك فالطريقة الوحيدة التى يمتلكها لتمييز الذاكرة من الخيال تكمن فى أن الذاكرة أكثر قوة وحيوية (T85) ، وتم استخدام المفاهيم نفسها فى (البحث) لتمييز الانطباعات عن الأفكار ، وبالمقارنة مع أفكار الذاكرة التى تنبض بالحياة والقوة ، فإن أفكار الخيال تكون باهتة واهنة (T9) إلا أن هذا التمييز لا يمكن قبوله بشكل تام ، إذ يجب أن نضع فى الاعتبار أنه من الممكن تذكر خبرة ماضية بطريقة صحيحة وليكن محادثة يشارك فيها شخص ما أو شعور

شخص بالخيبة عندما يحدث شيئاً خاطئاً ودون مساعدة من أى صور على الإطلاق .

من الممكن أيضاً تخيل أن شيئاً ما هو القضية ، ومع ذلك يتم توزيعه مع أى صورة فعلية ، دعنا من ناحية أخرى نضع فى اعتبارنا الحالات التى تؤدى فيها الصور دوراً بالفعل – فإنه يكون من الخطأ الذى يمكن اكتشافه بسهولة هو اعتبار أن الصور التى تخدم الخيال تكون دائماً أكثر وهناً وضعفاً من الصور التى تدخل الذاكرة ، حقاً أقر هيوم بذلك فى تذييل (رسالته) ، وقد اضطر إلى أخذ مأمن للقول بأنه حتى لو تم رسم خيال شعرى فى صورة مفعمة بالحيوية ، فإن الأفكار التى تقدمها تعد مختلفة بالنسبة للشعور عن الأفكار التى تنتج عن الذاكرة والحكم Judgment (T631) ، لكن يتم اعتبار ذلك بالفعل للتسليم بان مسألة الحيوية النسبية برمتها غير ذات صلة بالموضوع المطروح ، والملمح المميز للذاكرة سواء تم خدمتها بالصور أو لا أنها تظهر اعتقاد الشخص فى شئ ما اكتسبه، وبالمعنى الذى قصده هيوم، بأن الاعتقاد يعبر عن عقيدة حدوث بعض الخبرات الماضية . بينما المظهر المميز للخيال فيما عدا القول بأن شيئاً ما يعد خيالياً للتعبير عن أنه لا يوجد ، هو محايدته Neutral بالنظر إلى وجود مسائل الواقع الذى مثلها.

لقد كان هيوم على حق إلى هذا الحد حيث وجد فقط ، اختلاف فى (النبرة) بين ذاكرة الشخص بشأن خبرة ماضيه وبين

التركيب الخيالى للشخص بشأن الخبرة التى يعتقد بوقوعها بالفعل ، ولكنه يكون خاطئاً إذا تبنى هذا المفهوم فقط أو لكى يكون المحور الرئيس فى الإشكالية ، إننى أستخدم الحالة الشرطية لأنه ليس من الواضح أنه يقوم بذلك دائماً ، وهكذا فلا يتم الإقرار بأن هيوم كاتباً متسقاً ، وفى ملحوظة دونها فى تذييل رسالته بعنوان (فى طبيعة الفكرة أو الاعتقاد) ، يقول : إنه فى إعطاء تفسير فلسفى للاعتقاد لا يمكننا القيام بأى شئ سوى التأكيد لأنه شئ نشعر به بواسطة العقل ، وهو الذى يميز أفكار الحكم عن أوهام الخيال (T629) ، وحقاً أنه لم يُضمن أشكال الذاكرة ضمن أفكار الحكم على نحو واضح ، لكن يمكن وضع ذلك وفقاً للسياق ، وأنه استمر فى التحدث عن الأفكار التى نقبلها ونقرها لأنها أكثر قوة وثباتاً وحيوية من تداعى أفكارنا ، لكن الآن يبدو أن كلمات مثل (مفعم بالحيوية) يتم استخدامها بالمنظور التقنى Technical الذى يتضمن الأفكار بأن هى التى تقوم بتأهيل الطلب ، وكانت المشكلة هى افتقاد هيوم للنظرية الصحيحة فى المعنى والإشارة ، ويعترف هيوم فى نهاية تذييل (الرسالة) بعدم رضاه عن معالجته لمفهوم الاعتقاد ، ومع أنه يربط الاعتقاد بشكل رئيس بالاستدلال ويفترض أن جميع الاستدلالات يجب أن يتم تأسيسها على انطباعات ، فقد بدأ بتعريف المعتقد بأنه فكرة مفعمة بالحيوية ترتبط أو تقترن بانطباع حاضر (T96) ، ولكن هنا مرة أخرى (مفعمة بالحيوية) تعد خارجة عن مكانها ، ما لم تغط تعبير مثل (القبول) ، لقد

قام هيوم بوضع المحور الصحيح ، بأن المعتقد لا يمكن أن يعبر عن فكرة بعيدة على أساس أن الفكرة هى التى تعطى المعتقد محتواه ، ولذلك فإن ما يجب علينا وضعها الآن هو : فيما تستخدمه الجملة يبقى كما هو ، سواء تم تصديقه أو لا ، ولم يجادل هيوم فى إمكانية أن يكون انطباعاً وذلك لارتباطه بالخواتيم التى تتكون فقط من الأفكار، وأحياناً يسميه عاطفة دون توضيح لمعنى العاطفة إذا لم تكن انطباعاً أو فكرة ، وفى النهاية – قال فى مؤلفه (البحث) : أن المعتقد لا يكمن فى طبيعة معينة أو متميزة أو نظام من الأفكار ، ولكن فى طريقة فهمها وطريقة الشعور بها فى العقل (E49) ، وهذا التحليل يصعب وصفه بأنه تحليل مضئ أو واضح .

ولكن بالنسبة للوضوح وتبيانه عند هيوم ، فيمكن القول : بأن مشكلة إعطاء تحليل للمعتقد والذى لا يمكن وصفه بأنه تافه أو دائرى مازال ينتظر الحل ، فلا تعد المحاولات الحالية فى إطار الاستعدادات الطبيعية للحدث – من وجهة نظرى ناجحة ، ومن الممكن الاعتقاد بأن نظرية الإشارة كانت محتواه فى معالجة هيوم للأفكار المجردة ، ولكن هنا أكثر من أى موضع آخر ، فقد تم إعاقتها بواسطة افتراضه الخاطئ بأن استخدام المفهوم يتوقف على تكوين الصورة ، وهذا أدى به إلى إنفاق عمل غير ضرورى فى إثبات أن الصور تقوم بتحديد الكيفيات ، إنها قضية لم يقم بتمييزها بشكل واضح عن القضية التى يجادل من أجلها أيضاً ، بأن الصور تمثل أفراداً معينين قاموا بأنفسهم بتحديد

الكيفيات ، أننى غير متأكد من أن بداية هاتين القضيتين تعد صحيحة ، ولكن إذا كان كلتاهما صحيحة ، فإنهما غير ذات صلة ، لأن استخدام المصطلح العام لا يحتاج أن يكون مصحوباً بصورة أو بواسطة الفكر الخاص بأى فرد ، ويعتبر هيوم على حق بالفعل ، عندما رحب (باكتشاف) بيركلى الذى وضعت فيه المفاهيم فى صيغة عامة وليس بإشارتها إلى كيان مجرد ولكن بواسطة استخدامها ، ولكن لا يوجد لديه شئ أكثر إخباراً للقول المتعلق باستخدامها سوى ما تقوم به الأذهان بتجميعه ووضعها تحت مفهوم عام بالنظر إلى المشابهة التى تحملها بعضها لبعض (T23) .

لقد أشرت من قبل إلى أن مبدأ هيوم الأساسى يتعلق باشتقاق الأفكار، يتضمن هذا المبدأ ، كما ذكره هيوم فى الرسالة ، (يتم اشتقاق جميع أفكارنا البسيطة فى ظهورها الأول من الانطباعات البسيطة التى تتفق معها ما تمثله بالفعل (T4) – يمكن التعبير عن الأهمية القصوى لهذا المبدأ بالنسبة لهيوم بأنه يقدم معياراً لشرعية الأفكار أو المفاهيم – كما وضع – فى مؤلفه (البحث) : عندما نستمتع بأى شك ، فإن المفهوم الفلسفى يتم توظيفه دون أى معنى أو فكرة (كما هو ، ولكن متكرر للغاية) ، ولكن نحتاج للتحقق من أى انطباع يفترض بأنه قد تم الاشتقاق منه ؟! (E22) ، يعامل هيوم هذا بوصفه تعميم تجريبى له كفاية بطريقة غريبة ، فقد قام بتخمين مثال مكمل ، فتخيل حالة يتم تعريض شخص ما لأنواع عديدة من ظل

الألوان ، ولكنه فقد واحد منها ويخمن بطريقة صحيحة إلى حد بعيد بأن هذا الشخص يستطيع تكوين فكرة بشأن الظل المفقود كشئ متوسط فى تفاوت اللون بين اثنين من الألوان الأخرى ، بوضع هذا المثال – فقد أراد هيوم نبذها – بالقول بأنها (خاصة – منفردة) للغاية كى لا يضطر إلى التخلى عن قاعدته العامة ، وبالفعل فقد استمر فى التعامل مع قاعدته كما لو كانت قاعدة عامة أو كلية ، لقد كان فى مستطاع هيوم أن يتجنب تلك الإساءة للمنطق لو أنه قام بتعديل مبدأه ، وذلك بجعله لا ينطبق على الأصل ولكن من أجل إدراك الأفكار ، عند ذلك فإن تكوين فكرة يستلزم أن تكون قادرة على التشبع بانطباع ما ، يمكن الدفاع عن هذا المبدأ فى اعتقادى ، إذا تم تفسير كلمة (تشبع) بطريقة رحبة ، وذلك للسماح للفكرة لأن تكون مشبعة إذا دخلت فى نظرية يمكن تأكيدها على الأقل بطريقة غير مباشرة من خلال الشعور بالخبرة ، ومع ذلك ، فمن الممكن أن يأخذنا ذلك بعيداً عن هيوم إلى حد ما ، تعديل من الممكن أن يكون قد قبله وهو أن الأفكار يجب أن تكون قابلة للوجود الفورى عن طريق الانطباعات ، ولكن ذلك ، على الرغم من أنه يتفق مع مثاله المكمل فإنه مازال محصوراً للغاية ، وبالممارسة فقد قبل هيوم بان هذه الأفكار يمكن أن تتكون فورياً بواسطة الأجساد ، والتى يتم تطويرها عن طريق الانطباعات الناتجة عن بعض الأنشطة الخاصة بالخيال .

وسوف نقوم بمناقشة السؤال الخاص بالمدى التى تختلف فيه الممارسة عن النظرية التى تمسك بها هيوم ، وفى نطاق تثبيت انتباهه على الأفكار ، فقد استمر هيوم فى مراجعة الطرق التى تقترن فيها ببعضها ، وفى (الرسالة) ميز بين سبعة أنواع مختلفة من العلاقات الفلسفية التى قام بتقسيمها إلى مجموعتين وفقاً لاستطاعتها أو عدم استطاعتها أن تكون (موضوعات المعرفة واليقين) ، والعلاقات الأربع التى تستطيع تثبيت هذه العلامة لكونها تعتمد – فقط – على الخصائص الجوهرية للأفكار : هى التشابه Resemblance ، والتضاد Contrariety ودرجات الكيف Degrees in Quality والنسب الكمية أو العددية والثلاثة الأخيرة هى الهوية ، الزمان والمكان والسببية ، وتبرير هيوم لوضع علاقة الهوية فى المجموعة الثانية هى أن الموضوعات التى تتشابه على نحو تام يمكن أن تبقى مختلفة فى العدد إذا لم تتطابق فى المكان والزمان ، وهذا يؤكد على ما كان واضحاً – أن ما أسماه هيوم بالعلاقات بين الأفكار لا تعتبر - مجردة فقط – ولكنها تمتد أيضاً للعلاقات بين الموضوعات التى يمكن تصنيفها على أنها أفكار ، وحقا من بين كل العلاقات الذى ذكرها ربما يعبر التضاد فقط عن مفهوم خالص ، وهذا التقسيم بين العلاقات يتخيل المبدأ الثانى من مبادئ هيوم الأساسية الذى يتضمن أن (كل موضوعات العقل الإنسانى أو البحث والاستقصاء يمكن تقسيمها بطريقة طبيعية إلى نوعين :

1- العلاقات بين الأفكار .

2 - أمور الواقع (E25).

فى هذه القضية الذى تم أخذها من مؤلفه (البحث) من التأكيدات المتعلقة بالعلاقات بين الأفكار التى تم معالجتها بوصفها تصورات بحتة ونتيجة لذلك ، لكونها حدسية أو برهانية أكيدة فإنها تتضمن علوم الهندسة والجبر والحساب، ولم يقل هيوم أى شئ خاص بشأنها ، حيث انصب اهتمامه على معتقداتنا المتصلة بأمور الواقع – وقد قاده ذلك فى مؤلفه (البحث) – إلى اختزال قائمة العلاقات التى وضعها إلى ثلاث وهى :

1- التشابه .

2- الزمان والمكان .

3- السبب والنتيجة (E24)

تعبر الأولتان عن مبادئ للاقتران – العلاقة المهمة هى السبب والنتيجة ، لأن جميع الاستدلالات الخاصة بأمور الواقع تُظهر بأنها تأسست عليها ، لذا خطط هيوم – إذن – لسبر غورها ، إلا أنه يجب الإشارة إلى أنه عندما قام بفحص هذه العلاقة فى مجال الفلسفة الطبيعية ، فقد نظر إليها كمتحكمة بين انطباعات تزول ، ولكن بين موضوعات لها صفة الدوام وقد أبان ذلك بوضوح بواسطة أمثلته – حقاً



obeikandi.com

إنها تكون ممكنة – فقط – إذا تم أخذها بهذه الطريقة التى يظهر بها أن تحليله للسببية بكل طريقة تعد شبه معقولة، وعلى نحو متساوى ، عندما يصل الفحص للفلسفة الأخلاقية نجده يعتمد على وجود ذوات دائمة ، لذا يجب أن نبدأ بتوضيح كيفية استطاعته الوصول إلى هذه المفاهيم دون مبالغة أو تضخيم فى عرض عدم الاتساق .

obeikandl.com